بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه على تمام نعمته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُنجي قائلها يوم الدين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن من أعظم ما ابتُليت به الدعوة إذا ظهرت وانتشرت، أن يدخلها من ليس من أهلها، وأن تُبتلى بأهلها من حيث لا يشعرون، فتتفرق كلمتهم، وتختلف مسالكهم، وتضعف هيبتهم، حتى يصير الحق الذي كانوا يحملونه مشوبًا بأهواء النفوس، ومداخل الدنيا، وعلائق القلوب بغير الله. وقد كان السلف رحمهم الله يخافون على أنفسهم من هذا الباب أعظم الخوف، مع ما كانوا عليه من صدقٍ وإخلاصٍ وعلمٍ راسخ، فكيف بزمانٍ كثرت فيه الفتن، وتداخلت فيه المصالح، وضعف فيه التمييز بين الحق والهوى؟

واعلم رحمك الله أن أصل البلاء كله إنما يرجع إلى فساد القصد أو ضعف العلم، فإذا اجتمعا هلك العبد من حيث لا يشعر، وإذا صلحا استقامت له طريقه وإن قلّ أنصاره. وإن مما يُرى اليوم ويُحزن قلب المؤمن: تفرّق المنتسبين إلى السنة والسلفية شيعًا وأحزابًا، كلٌّ يغلب عليه باب، ويقصر نظره عليه، حتى صار الحق عند كثير منهم مجزأً لا يُؤخذ جملةً كما أخذه السلف، بل يؤخذ بحسب الهوى أو المصلحة أو البيئة.

فمنهم من قيّد نفسه بقيود العمل الرسمي، فجعل ما هو وسيلة غاية، وما هو تابع أصلًا، فصار يزن النصوص بميزان الواقع، لا يزن الواقع بميزان النصوص، فوقع في السكوت حيث يجب البيان، وفي التأويل حيث يجب الإيضاح، وربما جرّه ذلك إلى ليّ أعناق النصوص، وكل ذلك يلبسه لبوس فقه المصالح ، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها] ، لا على إبطال الحق أو كتمانه.

ومنهم من ترك أصلًا عظيمًا من أصول أهل السنة، وهو بيان الحق والتحذير من الباطل وأهله، فصار يرى السكوت دينًا، وترك البيان حكمة، ونسي أن الله أخذ الميثاق على أهل العلم فقال: {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}، وكان السلف يسمّون أهل البدع ويحذّرون منهم، لا تشفّيًا ولا هوى، ولكن نصحًا للأمة وصيانةً للدين.

ومنهم من غلا في الرجال، فصار يوالي ويعادي عليهم، ويجعل أقوالهم ميزان الحق، حتى إذا خالف النصَّ الصريحَ أو الإجماعَ اليقينيَّ، قدّم قول متبوعه عليه، وهذا والله من جنس ما ذمّه الله في قوله: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}، وقد قال الإمام مالك رحمه الله: [كلٌّ يُؤخذ من قوله ويُرد إلا صاحب هذا القبر]، وأشار إلى قبر النبي ﷺ.

ومنهم من وقع في التعصب المذهبي، يردّ الدليل الصريح لمخالفة مذهبه، ويضيق صدره بفهم السلف، وهذا خلاف ما كان عليه الأئمة الأربعة أنفسهم، فإنهم نهوا عن تقليدهم إذا خالف قولهم الدليل، كما قال الشافعي رحمه الله: [إذا صح الحديث فهو مذهبي].

ومنهم من تميّع في باب العقيدة والمنهج، فكثر فيهم الإرجاء، وضعف عندهم باب الولاء والبراء، وصاروا يوسّعون دائرة الحق حتى يدخل فيها من ليس من أهله، ويضيقون باب الإنكار حتى لا يبقى له أثر، وكل ذلك باسم جمع الكلمة ، وما علموا أن الكلمة لا تجتمع إلا على الحق.

ومن أعجب ما يُرى: تصدّر من ليس من أهله، وانتحال المبطلين لاسم السلفية، وركوبهم موجتها، حتى صار الجاهل يفتي، والمندس يوجّه، وصاحب الهوى يتصدر، وقد قال محمد بن سيرين رحمه الله: [إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم .
وإذا تأملت هذه الآفات كلها، وجدت أنها ترجع إلى أصولٍ أربعة: اتباع الهوى، وتعظيم الدنيا، والتعصب للرجال، والجهل بأصول المنهج. ولهذا كان السلف يعظمون الأصول الجامعة: الكتاب والسنة، والإجماع اليقيني الذي هو سبيل المؤمنين من الصحابة رضي الله عنهم، لا يقدّمون عليها رأيًا ولا سياسةً ولا مصلحةً متوهمة.

واعلم أن الاجتماع الذي أمر الله به ليس اجتماع الأبدان ولا الشعارات، وإنما هو اجتماع على الحق، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا}، وحبل الله هو الوحي، لا الأشخاص ولا الجماعات ولا التنظيمات. وإن من رحمة الله في هذا الزمان، بقاء طائفة ظاهرة على الحق، لا يضرها من خذلها ولا من خالفها، صابرة على الأذى، ثابتة على الأصول، لا تبيع دينها بدنيا غيرها، ولا تغتر بكثرة الهالكين، وهؤلاء هم الغرباء الذين أخبر عنهم النبي ﷺ. فالواجب على من أراد النجاة، أن يجرد قصده لله، ويتبع الدليل، ويلزم غرز العلماء الكبار المعروفين بالعلم والديانة، ويزن الأقوال بالوحي، لا بالرجال، وأن يحذر من مسالك التفرق، فإنها تبدأ يسيرة ثم تنتهي بصاحبها إلى ما لا يُحمد عقباه.
فاتقوا الله عباد الله، وراجعوا أنفسكم، وارجعوا إلى أصولكم، فإن الحق لا يُعرف بكثرة المنتسبين، ولا بعلو الأصوات، وإنما يُعرف بما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه. نسأل الله أن يصلح القلوب، ويجمع الكلمة على الحق، ويعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يجعلنا من أهل السنة حقًا، الذين لا يبتغون بها بدلاً، ولا عنها يحيدون. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انفلات الأدوار وفتنة التصدّر، حين تُنزع الدعوة عن مواضعها ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه على ما أولى من النعم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُصلح القلوب وتزكي الأعمال، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن من تمام النصح للأمة، ومن أداء الأمانة التي أخذها الله على أهل العلم، أن يُبيَّن الحق في كل باب، وأن تُسدّ أبواب الفتنة قبل أن تستحكم، فإن الفتن إذا أُهملت في أولها صارت دينًا يُدان به، ومسلكًا يُدافع عنه. وإن من جملة ما ابتُليت به الدعوة في هذا الزمان، واشتد خطره، وخفي على كثير من الناس، بل ربما لُبِّس فيه باسم الدعوة و النصرة و نشر الخير ، توسّع النساء في باب الدعوة حتى تجاوزن حدّهن المشروع، فاختلطت الأدوار، واضطربت الموازين، وفتح بذلك باب من الفتنة عظيم.
وليس المقصود والله تنقص النساء ولا الحط من شأنهن، فإن المرأة المسلمة لها من القدر والمكانة ما هو معلوم في الشريعة، وهي شقيقة الرجل في التكليف، وقد كان في نساء الصحابة من الفقه والعلم ما يُروى ويُنتفع به، وعلى رأسهن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، التي قال فيها النبي ﷺ: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، وكانت تُعلّم النساء، ويأخذ عنها كبار الصحابة.

لكن الشأن كل الشأن، في ضبط الأبواب بحدودها، وعدم نقل الأمور عن مواضعها التي وضعها الشرع، فإن الخير كل الخير في الاتباع، والشر كل الشر في الابتداع والتوسع بغير ضابط. فلم يكن في القرون المفضلة مع علو قدر النساء وصلاحهن أن تتصدر المرأة الدعوة العامة، ولا أن تكون رأسًا يُوالى ويُعادى عليه، ولا أن تُنشئ تجمعات وتنظيمات تُدار منها الدعوة، ولا أن تُزاحم الرجال في ميادين البيان العام، ولا أن يكون لها تأثير مباشر على الرجال في توجيههم ومساراتهم الدعوية.
وإنما كان الأصل الذي استقر عليه عمل السلف، أن المرأة تتعلم وتُعلّم في محيطها، وتُربي، وتُنصح، وتدعو إلى الله على بصيرة فيما يخصها، مع صيانة وحشمة، وسدٍ لأبواب الفتنة، كما قال الله تعالى: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}. فإذا تجاوز الأمر هذا الحد، و وقع التوسع حتى صارت المرأة رأسًا يُتبع، ولها أتباع وتنظيمات، وتُمنح التزكيات، وتُطلب منها التوجيهات، ويُرجع إليها في شؤون الدعوة العامة، بل ويؤثر كلامها في الرجال، ويُقدَّم رأيها، ويُلين لها القول، ويُفتح لها باب لا يُفتح لغيرها، فإن هذا من أبواب الفتنة التي يجب إنكارها والتحذير منها.

وقد علم من دين الإسلام بالضرورة، أن سدّ الذرائع المفضية إلى الفتنة أصل معتبر، وأن القلوب ضعيفة، وأن الفتنة بالنساء من أعظم الفتن، وقد قال النبي ﷺ: ((ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)) . فكيف إذا اجتمع إلى ذلك: جمال أو جاه أو مال أو لسان مؤثر، مع قرب من أهل الدعوة، وتأثير فيهم، واتساع دائرة الأتباع، حتى صار لبعضهن رؤوس تُدار من خلالها مجموعات، وتُبنى عليها ولاءات، ويُسقط من خالفها، ويُحذر منه، وكأنها صارت كيانًا قائمًا بذاته تحت اسم الدعوة؟ إن هذا والله من جنس التحزب الذي نهى الله عنه، ومن أسباب الفرقة التي تُذهب ريح الدعوة، وإن سُمّي بغير اسمه، فإن الحقائق لا تتغير بالأسماء.
والمصيبة الأعظم، أن يُلبس ذلك لباس السلفية، فيُظن أنه من الدين، وهو في حقيقته مخالف لهدي السلف، فإن السلف ما عرفوا هذه المسالك، ولا هذه الصور، ولا هذا التوسع. فالواجب على أهل العلم والدعوة: أن يبينوا هذا الباب بيانًا شافيًا، وأن يضعوا الأمور في مواضعها، وأن يُكرموا المرأة بما أكرمها الله به، دون أن تُفتح عليها أبواب تُفسدها وتُفسد غيرها.

كما يجب على النساء الصالحات، أن يتقين الله في أنفسهن، وأن يعرفن قدرهن، وأن يلزمن حدّ الشرع، وأن يبتعدن عن مسالك التوسع والتصدر، فإن السلامة لا يعدلها شيء. واعلموا رحمكم الله أن الفتن إذا دخلت من أبواب التزيين والترغيب كانت أشد خطرًا من الفتن الظاهرة، لأنها تُقبل ولا تُنكر، حتى تستقر وتستفحل.
فاتقوا الله، والزَموا غرز السلف، واحذروا من كل مسلك لم يكن عليه الصحابة رضي الله عنهم، فإن الخير كل الخير في اتباعهم، والشر كل الشر في مخالفتهم. نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا، وأن يصرف عنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يجعلنا من أهل الاتباع الصادقين.
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين